

شعراء النقائض

لعل معرفة بعض جوانب حياة الشاعر تخدمنا في الوقوف على المثالب والمناقب ، المناقب التي كان يفاخر بها الشعراء أقرانه ، والمثالب التي أخذت عليه وعيّر بها ، لذلك نحاول استقصاء بعض الجوانب من حياة شعراء النقائض ، وهم :

الفرزدق :

هو همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال من دارم ثم من تميم ، يكنى أبا فراس وأبا مكية ، ولقب بالفرزدق لجهومة وجهه وأثر من الجذري منطبع فيه ، وكلمة فرزدق معان كثيرة متقاربة منها : الرغيف الساقط في التتور ، وقيل القطعة من العجين ، وقيل إنه الخبزة الغليظة التي تتخذ منها النساء الفتوت فتشربة لتتسمن به ، والأغلب انه الخبزة الغليظة المتجهمة ، وقد سمي شاعرنا بهذا للاسم لقبح في وجهه . والفرزدق من قبيلة بدوية عريقة في البداوة - دارم - لا تخضع لما تعارف عليه الحضر من قوانين وشرائع ، ليس أدل على ذلك من اعتداء هذه القبيلة على الحرم في الجاهلية حيث الأشهر الحرم التي تعارف عليها الجاهليون ، وقد ورث الفرزدق طباع قبيلته البدوية ، فكان قاسياً في طبعه وتعامله ، جريئاً في تطاوله ، صحراوياً في لغته ، بدوياً في معانيه ، لم يصقله الاسلام ولم يهذبه الدين ، وكان أبوه غالب مشهوراً بالكرم والعزة ، وجده صعصعة عظيماً في قومه ابتدع للشهرة طريقاً كريماً جداً ، فقد اشترى أكثر من أربع مئة موعودة ، أنقذها من الموت المحتم فورث الفرزدق منها حب الفخار والنجدة وأكثر من ذكرها في شعره تعظيماً وتفخيماً .

وتعطرس الفرزدق فتطاول على الشعراء والقادة والملوك ... فمن كقومه في الجاهلية عزة وجفوة يتطاولون حتى على الحرم ،؟! ومن كأبيه وجده يدفع من خاص ماله ليحيى الموعودات من بنات الناس؟! وهذا ما نفرّ منه الحزب الحاكم ، فقد كان كثير الإدلال عليهم ، كثير الفخر أمامهم بأبيه وجده وأهله... وقد وقف مرة أمام معاوية يطالبه بإرث من عمه الحتات المجاشعي - وكان معاوية قد احتجزه لبيت المال - فخطبه الفرزدق بلهجة الأنداد وأربى عليه حينما قال :

أَتَأْكُلُ مِيرَاثَ الْخُتَاتِ ظَلَامَةً وَمِيرَاثُ حَرْبٍ جَامِدٌ لَكَ ذَانِبُهُ؟ (١)
أَبُوكَ وَعَمِّي يَا مُعَاوِيَّ أَوْرَثَا تَرَاثًا فَيُحْتَازُ التُّرَاثُ أَقَارِبُهُ (٢)
فَلَوْ كَانَ هَذَا الدِّينُ فِي جَاهِلِيَّةٍ عُرِفَتْ مِنَ الْمَوْلَى الْقَلِيلُ حَلَابِيْنُهُ
وَلَوْ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ فِي غَيْرِ مُلْكِكُمْ لِأَبْدَيْتَهُ أَوْ غَصَّ بِالْمَاءِ شَارِبُهُ
وَكَمْ مِنْ أَبِي لِي يَا مُعَاوِيَّ لَمْ يَكُنْ أَبُوكَ الَّذِي مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ يُقَارِبُهُ

وقد سبق الحديث عنها أثناء الحديث عن مراكز الشعر الأموي - الأمر الذي مكن الفرزدق من الإطلاع على كل ما قاله الشعراء ، وكما نعلم كان الفرزدق شاعراً من شعراء ذلك المركز الثقافي ، ففي سوق المربرد تلاقى مع جرير ومن هناك أذيعت نقائضهم ...

وكما قلنا إن الفرزدق لم يراع حدود الدين ، لذلك ينبغي ألا نستغرب إذا وقعنا على الفاحش من المعاني في شعره ، وما أكثره ، وخاصة أنه كان قاسياً على المرأة حينما يتعرض لذكر نساء المهجو ، وفي حياته العملية أيضاً لم ينظر إلى المرأة إلا كوسيلة للمتعة المادية ، ولعل ذلك هو السر في كثرة عدد أزواجه وكثرة خلياته وقد اشتهر بكثرة علاقاته الغير مشروعة مع المرأة حتى قال عنه جرير :

وَكُنْتُ إِذَا نَزَلْتُ بِدَارِ قَوْمٍ رَحَلْتُ بِخَزِيَّةٍ وَتَرَكْتُ عَارًا
شرب الخمر وارتكب المحرمات ثم طمع الفرزدق في عفو الله عز وجل، يبين ذلك تحاوره مع أحد لائميته حيث يقول له الفرزدق : أتراني لو أذنبت إلى والدي أكانا يقذفاني في تنور وتطيب نفسيهما بذلك ؟

قال الرجل : لا ، بل يرحمانك

فقال الفرزدق : أنا والله برحمته أوثق مني برحمتها !!

وكي لا نطيل في الحديث عن جوانب شخصية الفرزدق نخرج سريعاً على الفرزدق الشاعر لنعرف جوانب شاعريته .

ومنذ البداية نقول : شعر الفرزدق نموذج كامل للغة الأموية والعقلية الإسلامية في صدر دولة بني أمية ، ولهذا لم يخرج موضوع شعره عن الهجاء والمديح والغزل والفخر إلا قليلاً جداً، تلك المواضيع البدوية التي قال فيها الجاهليون أحقاباً طويلة ،

(١) ظلامه : ظلماً وعدواناً . حرب : جد معاوية . والمعنى : يتجمد لديك ميراث جدك حرب و يربو وهو في الأصل وفيه ثم تتداني فتعدو وتأكل ميراثي من عمي وتظلمني

(٢) يحتاز : يمتلك . والمعنى : أبوك وعمي كلاهما ترك مالا . وينبغي أن أرث عمي كما ترث أبك

وقال فيها الإسلاميون كذلك ، ولم يزد عليها إلا ألفاظاً إسلامية قليلة ، كالإسلام ، والخلافة ، والله ، وإمارة المؤمنين ، وما شابه ذلك مما اقتضاه تغير الظرف الاجتماعي والتطور العقلي طوال قرن كامل . ولقد عرف له القدماء ذلك فقال أبو عمرو بن العلاء : "لم أرَ بدويًّا أقام في الحضر إلا فسد لسانه غير روبة والفرزدق فهو يقر معنا بالنفس التي يحملها الفرزدق بصراحة .

ومن عادة الفرزدق أن يتناول الموضوع الذي يريده رأساً فلا يوطئ له في الغالب بمقدمة غزلية أو تذكارية للدمن والأطلال والأحبة ، على ما جرت به عادة الشعراء قبله إلا قليلاً، ولا يطول نفسه إلا في النقائض أو المدائح الكبرى .

١ - الهجاء :

هجاء الفرزدق عليه طابع خاص لا يشابهه في شاعر من شعراء اللغة العربية ، فهو زعيم هذه الطريقة في الهجاء ، ولو كان في هذا النوع مجال للفخر ، لكان له وحده من غير شك ، ولكنه فخر منقلب على قفاه يتدنى به ويسفل حتى يدرك الحضيض من البذاءة والوقاحة ، يستعمل ألفاظاً غاية في القذارة ويتناول على أعراض المهجو ، فيسب الأم والأب والأخت والزوجة والقبيلة سباً قبيحاً جداً ، ويمزج هذا السب بالفخر فيتعالى بنفسه وقبيلته إلى السماء ، ويضع نفسه في موضوع يتضاءل دونه المهجو حتى تحسبه قد انحجر في نافقاء خجلاً واستحياء، ويعدد أيام قبيلته وانتصاراتها وزعماءها وشعراءها ، ويقرن ذلك بمخازي المهجو وانكسارات عشيرته وأيامه السود ، ويحشوه بالشتائم حشواً ، بل يقذفها في وجهه قذفاً قاسياً ويؤلمه أشد ألم حتى يبكيه . ولذلك كانوا يخشون سلطة لسانه ومعرفة مقولة فيتحاشونه ، ولم يثبت له إلا جرير ، على ما فيه من عفة وأدب بالقياس إليه .

ولم يكن الفرزدق يعف في هجائه عن تناول النساء بالمسبة والإقذاع ، ولعل هذا التطاول منه عليهن جعل تلك المرأة الكلابية التي هجا قومها تعوذ بقبر أبيه لكي لا يذكرها في شعره بسوء ، فقال :

عَجُوزٌ تُصَلِّيُ الْخَمْسَ عَادَتْ بِغَالِبٍ فَلَا وَالَّذِي عَادَتْ بِهِ لَا أَضِيرُهَا
وسنقف فيما بعد مع بعض النماذج من هجائه .

٢ - المدح :

لم يخلص الفرزدق لممدوحيه ، وإنال العطايا والهدايا من الحزب الحاكم ، وقد غلب على مدائحه الطابع الجاهلي في الشكل والمضمون ، قدم قصائده بالغزل أو ذكر الديار ، ثم ذكر ناقته وما قاست من مشاق وما قطعت من فلوات حتى نهكت قبل الوصول إلى الممدوح ، ثم يمدح الأمويين بحقهم في الخلافة ثم يذكر أهله وكيف فارقهم في جذب وقحط ويطلب العطاء صراحة ، وهو أثناء ذلك يحشو المديح فخراً وتعاضماً حتى ليختلط المديح بالفخر في معظم قصائده .

وكما سبق القول إن الفرزدق لم يمدح إلا ليحقق الكسب ، أما الاقتناع أو الإخلاص فيخلو من قصائده وهو يمدح فإن لم يعط يهجو ، من ذلك ما جاء في مدحه لآل المهمل :

عَلَى ذِي مُنَادٍ تَعْرِفُ الْعَيْسُ مَتِّهَهُ كَمَا تَعْرِفُ الْأَضْيَافُ آلَ الْمُهْمَلِ
ثم هجاهم لأنهم لم يعطوه بمثل قوله :

أَلَا قَبِيحَ اللَّهِ الْقُلُوصَ الَّتِي سَرَّتْ بَرَحِيَّ إِلَى خَصِيَّانِ آلِ الْمُهْمَلِ
بَنِي أُمِّ عَيْلَانَ كَأَنَّ لِحَاهُمْ مَخَالِي شِعْرٍ عُلِقَتْ فَوْقَ أُنْجُلِ

٣ - الفخر :

نشأ الفرزدق في قبيلة قوية الشكيمة ، أبيّة ، اعتدت في الجاهلية على الحرم ، ولم ترع لدين الناس حرمة ، ولا لما تواضعوا عليه من عبادة ووقار . كذلك كانت في الإسلام ... وورث شاعرنا المجد من طرفيه : من قبل أبيه ومن قبل أمه ، فجده صعصعة محي الموعودات، وفد على النبي فأسلم وقص عليه ما فعل فمدحه ، وأبوه غالب المشهور بكرمه ، نحر في يوم واحد مئة ناقة ، وكان الفرزدق طفلاً فكان يردُّ عليه النوق ويقول : " يا أبت اعقر " . وأمّه لبني (أو ليلي) أخت العلاء بن قرظة الشاعر ، وأم أبيه ليلي بنت حابس أخت الأقرع بن حابس المشهور بالشجاعة والجود ، ولقد ورث الشعر عن جده صعصعة وعن خاله العلاء، فلم لا يفخر ولا يشمخ بأنفه على الناس ، في عهد كان المجد الإرثي كل المجد ، والفخر بالجدود كل الفخر؟! فهو يفتخر بدارم ثم بتميم ثم بمضر يقول :

فَهَلْ ضَرَبَةَ الرَّؤْمِيِّ جَاعِلَةٌ لَكُمْ أَبَا عَن كُئِيبٍ أَوْ أَبَا مِثْلَ دَرَامِ
أَتَوْعَدْنِي قَيْسٌ وَدُونُ وَعَيْدِيهَا ثَرَاءَ تَمِيمٍ وَالْعَوَادِي مِنَ الْأَسَدِ
إِذَا مُضَرَ الْحَمْرَاءَ حَوْلِي تَعَطَّفْتُ عَلَيَّ وَقَدْ دَقَّ اللَّجَامُ شَكِيمِي
أَبْتُ أَنْ أَسُومَ النَّاسَ إِلَّا ظَلَامَةً وَكُنْتُ ابْنَ مِرْغَامِ الْعَدُوِّ ظَلُومِ

ويفتخر بعد هذا بنفسه وبشعره ، ويشير إلى قصائده المشهورة ، كقوله :
 فكيف تَرُدُّ ما بَعَمَانٍ مِنْهَا وَمَا بِجِبَالِ مِصْرَ مَشَهْرَاتِ
 غَلَبَتْكَ بِالْمَفْقَى وَالْمَعْنَى وَبَيْتَ الْمُحْتَبِي وَالخَافِقَاتِ(٣)
 وإجمالاً نقول أن الفرزدق لم يترك سبيلاً للفخر إلا وسار فيه ، وغالى ورفع نفسه إلى
 منزلة الخلفاء والأمراء وولد معاني الفخر حتى أصبح سيدها .

٤ - الغزل :

لم يعرف الحب الصافي إلى قلب الفرزدق سبيله قطعاً ، لأنه لم يكن ينظر إلى
 المرأة نظرة احترام وتقديس ، ولم يكن يراها ترتفع عن درجة قضاء الشهوة للرجل ،
 وللحمل ، فهو لم يكن يكرهها إذن ، ولكن كان يمتنها ويشتهيها شهوة قاتلة طوحت به
 في كثير من المناسبات وعرضته لمآزق حرجة ... راود امرأة عن نفسها فطرد من
 المدينة ... علاقاته بالمرأة كلها مشبوهة ويكفي أن نقول ما قاله الفرزدق لزوجته النوارِ
 : "يا سبحان الله ما أطيبك حراماً وما أردأك حلالاً!!" .

بعد هذا ينبغي ألا نبحت عن شعر غزلي رقيق في ديوانه ، وذلك لأنه لم يعان
 الحب قط ، بل بحث عن اللذة ، وهو يلخص طبيعة شعره الغزلي بقوله "ما أحوج
 جريراً إلى صلابتي لعفاهه، وما أحوجني إلى رفته لعهري !!" أي أنه يدرك أن أسلوب
 غزله غليظ جاف لا يشبه شعره التشبيبي والحب في شيء . ويكفي أن نذكر هذا
 النموذج من مقدماته الغزلية ، يقول :

أَلَمْ تَرَ أَيَّ يَوْمٍ جَوَّ سُوَيْقَةً بَكَيْتُ فَنَادَتْنِي هُنَيْدَةُ مَالِيَا
 فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْبُكَاءَ لِرَاحَةٍ بِهِ يُشْتَقَى مَنْ ظَنَّ أَنْ لَا تَلَاقِيَا
 قَفِي وَدَّعِينِي يَا هُنَيْدُ فَإِنِّي أَرَى الْحَيَّ قَدْ شَامُوا الْعَقِيقَ الْيَمَانِيَا(٤)
 قَعِيدُكُمْ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَمَ لَهُ أَلَمْ تَسْمَعَا بِالْبَيْضَتَيْنِ الْمَنَادِيَا
 حَبِيباً دَعَا وَالرَّمْلُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَأَسْمَعَنِي سَقِيَا لِذَلِكَ دَاعِيَا(٥)
 فَكَانَ جَوَابِي أَنْ بَكَيْتُ صَبَابَةً وَقَدَيْتُ مَنْ لَوْ يَسْتَطِيعُ فَدَائِيَا
 إِذَا اغْرُورَقْتَ عَيْنَايَ أَسْبَلْ مِنْهُمَا إِلَيَّ أَنْ تَغَيَّبَ الشَّعْرِيَّانِ بُكَايَا(٦)

(٣) المفقى والمعنى والمحتبى والخافقات إشارات إلى أربع قصائد مشهورة ذكرت فيها هذه الألفاظ وذهبت في العرب مذهب

الاستشهاد ومضرب المثل

(٤) شام البرق : نظر إليه أين يتجه . وشام في الأمر : دخل فيه . العقيق : الوادي

(٥) سقياً له : جملة للدعاء

(٦) الشعري : كوكب في الجوزاء

لِذِكْرِي حَبِيبٍ لَمْ أزلْ مَذْهَجَتْهُ أَعْدُّ لَهُ بَعْدَ اللَّيَالِي لَيَالِيَا

٥ - الرثاء :

الفرزدق بدوي العاطفة قاسيها ، يفهم الحياة على أنها طريق أولها ظلام القوة الأزلية في الرحم ، وآخرها ظلام الأبدية في القبر ، ولا يرى في الولادة إلا حادثاً طبيعياً غاية في البساطة لا يفرح ولا يسر . كما أن الموت حادث عادي لا يبكي ولا يؤلم ، وإذا انعدم شعره في الولادة ، فإن شعره في الرثاء قليل لا ينم عن رقة أو احساس ، بل يمكن القول أنه في رثائه ليس أكثر من مقلد ، ففي رثاء الأبناء مثلاً لا نلمس عنده عاطفة الأبوة ، بل ينظر إلى الأبناء كما ينظر التاجر إلى تجارته ، يأمل بها الربح ، فهو يرببهم ليدفعوا عنه المشاغبين إذا كبر ، ويقودوا له البعير إذا أسن :

يُقودُونَ بِي إِنْ أَعْمَرْتَنِي مَنِيَّةً وَيَنْهَوْنَ عَنِّي كُلَّ أَهْوَاجِ شَاغِبٍ

ويروى ابن نباتة الثقفى - أيضاً - أن الفرزدق أنشده قصيدته التي يرثى بها ابنه فلما انتهى إلى قوله :

بِفِي الشَّامَتَيْنِ الصَّخْرَ إِنْ كَانَ مُسْنِي رَزِيَّةَ شِبْلٍ مُخَدَّرٍ فِي الضَّرَاعِمِ

قال : يا يحيى أرأيت ابني ؟

قلت : لا .

قال : والله ما كان يساوي عبايته .

أما الزوجة إن ماتت فإنها لا تستحق الحزن أو البكاء أو حتى زيارة قبرها :

وَلَسْتُ وَإِنْ عَزَّتْ عَلَيَّ بِزَائِرٍ تُرَاباً عَلَيَّ مَرْمُوسَةٍ قَدْ تَضَعَضَاعَا

وأهون مفقود إذا الموت ناله عَلَى الْمَرْءِ مِنْ أَصْحَابِهِ مِنْ تَقَنَعَا

بقي أن نقول إن أقوى ألوان شعره هو شعر النقائض الذي سنورد منه نماذجاً متنوعة فيما بعد ..

٢ - جرير :

هو جرير بن عطية بن حذيفة (الملقب بالخطفي) بن بدر بن سلمة بن عوف بن كليب بن يربوع بن تميم ، ولد باليمامة سنة ٣٠ للهجرة تقريباً من أبوين ينتسبان إلى

قبيلة كليب ، اشتهر جده بالبخل مع كثرة المال من الغنم والحمير ، وقد ذكر ذلك جرير :

وَإِنِّي لَعَفُ الْفَقْرِ مُشْتَرِكُ الْغِنَى سَرِيْعٌ إِذَا لَمْ أَرْضَ دَارِي أَحْتَمَالِيَا
وَإِنِّي لَمَغْرُورٌ أَعْلَلُ بِالْمُنَى لِيَالِي أَرْجُو أَنْ مَالِكَ مَالِيَا
فَأَنْتَ أَبِي مَا لَمْ تَكُنْ لِي حَاجَةً فَإِنْ عَرَضْتَ أَيَقَّتْ أَنْ لَا أَبَالِيَا

أما عطية أبو جرير فقد عرف بقصر القامة وضعف الفؤاد واعوجاج القدمين ، وكان يرمى بالشح أيضاً ، واشتهرت أم جرير بلقب بنزت به وعير به أبناءها وأحفادها هو "حقة" لقبها به رجل رفض أبوها تزويجها منه ، معللاً ذلك بصغر سنها ، فتعجب الرجل من هذا التعليل ، وقال إنها حقة ، مشبهاً إياها بالناقة التي بلغت من السن ما يجعلها تصلح للضراب .

وقد عيرت أم جرير بأخيها "معرض" الذي اشتهر بالحمق ، ودارت على الألسنة طرائف من حماقاته ..

وقد عمل جرير في بداية حياته برعي الغنم والحمير كباقي أفراد عشيرته ، أما الشعر فهو كل ما ورثه جرير من أهله ، فالجد شاعر والأب شاعر والأعمام شعراء والأبناء شعراء والأحفاد شعراء ، أي أنه يشابه إلى حد كبير بيت زهير بن أبي سلمى الشعري .

فإذا كان الفرزدق قد ورث الكثير من المناقب التي يفاخر بها ، فإن جريراً ورث الكثير من المثالب التي يعير بها ، وكان عليه أن يجاوز هذه المثالب ويرتفع إلى مستوى القبيلة يربوع التي كان لها الكثير من المفاخر في الجاهلية .

وإذا كنا قد ألزمت الطالب منذ البداية بالرجوع إلى كتاب شوقي ضيف - العصر الإسلامي والأموي - فإننا نترك الحديث عن الكثير من جوانب حياة هذا الشاعر ونحيل على الكتاب المذكور ، حيث نجد ما أهملنا ذكره من جوانب حياة جرير والفرزدق والأخطل .

أما الألوان الشعرية التي عالجها جرير فنذكر منها :

١ - المدح :

إذا كان المدح هو الثناء على شخص قد أعطى بسطة في الرزق واتساعاً في
 النعمة لكي يمنح بعضاً مما عنده ، فإن أكثر الناس معرفة لمسالك المدح هم الأكثر
 حاجة الذين يولدون المعاني التي تستدر عطف الممدوح وتحضه على العطاء .
 وقد عرف جرير مسالك هذا الطريق وأجاد في ارتيادها فنال الكثير من العطايا ، وفتح
 لنفسه باباً من أبواب الرزق ، فدخل على الولاة والحكام ثم انتقل إلى الخلفاء فحاز
 إعجابهم الأمر الذي يستدعي الوقوف على منهجه في المدح ، ومعانيه التي كانت تعجب
 الممدوحين ، ونقول إن مدائحه انطوت على عدة عناصر هي :

© **العناية بتصوير شخصية الممدوح** :ومن ممدوحيه - أشهرهم - الحجاج بن يوسف
 الثقفي ، الذي أبرزه بصورة المدافع عن خلافة المسلمين ، القامع للفتن والثورات ،
 الذي يحاول إرساء الخلافة وتوطيد أركانها :

مَاضٍ عَلَى الْغَمَرَاتِ يُمِضِي هَمَّهُ وَاللَّيْلُ مُخْتَلَفُ الطَّرَائِقِ دَاجِي
 إِذَا سَعَرَ الْخَلِيفَةَ نَارَ حَرْبٍ رَأَى الْحَجَّاجُ أَتَقَبَّهَا شِهَاباً
 وَأَصْبَحَ كَالْبَازِي يُقَلِّبُ طَرْفَهُ عَلَى مَرَبِّأٍ وَالطَّيْرُ مِنْهُ دَوَاخِلُ

أما خالد بن عبد الله القسري ، فقد أظهره بصورة البطل الذي يفتك بالأعداء :
 إِذَا مَا أَرَادَ النَّاسُ مِنْهُ ظَلَامَةً أَبِي الضَّمِيمِ فَاسْتَعَصَى عَلَى كُلِّ قَائِدٍ
 وَكَيْفَ يَرُومُ النَّاسُ شَيْئاً مَنَعْتَهُ هَوَى بَيْنَ أَنْيَابِ اللَّيْثِ الْخَوَارِدِ
 إِذَا مَا لَقِيتَ الْقَرْنَ فِي حَارَةِ الْوَعَى تَنَفَّسَ مِنْ جِيَاشَةِ ذَاتِ عَانِدِ

هذا وينبغي أن نقول إن مدائح جرير للولاة أقوى من مدائحه للخلفاء ، ولعل
 مرجع ذلك ما وجده جرير من تقريب الولاة ، أما الخلفاء فكانوا يقربونه ويخلصون
 لغيره ، فعبد الملك بن مروان كان يفضل الأخطل على جرير ، والوليد بن عبد الملك
 يفضل عدى بن الرقاع العاملي ، وسليمان بن عبد الملك يقرب الفرزدق ...

© **ذكر أعمال الممدوح العظيمة** : فالحجاج - مثلاً - حرب على الثائرين، وهو لهم
 بالمرصاد يحاول أن يقضي على هؤلاء المنافقين :

مَنْ سَدَّ مَطْلِعَ النَّفَاقِ عَلَيْهِمْ أَمْ مَنْ يَصُورُ كَصَوْلِ كَصَوْلَةِ الْحَجَّاجِ ؟
 عَفَارِيَتِ الْعِرَاقِ شُفِيَّتْ مِنْهُمْ فَأَمْسُوا خَاضِعِينَ لَكَ الرَّقَابِأُ
 وَأَطْفَاءَ نِيرَانَ الْعِرَاقِ وَقَدْ عَلَا لَهُنَّ دُخَانِ سَاطِعٍ وَحَرِيْقُ

وباختصار نه مدح الولاية بأعمالهم التي تتصل بإخماد الثورات - وخاصة
الحجاج - والفتن ونشر الأمن ، أو أعمالهم العمرانية ...
© أما إذا كان الممدوح لا يحتل من قلب الشاعر مكانة بل يطمع الشاعر في العطاء فقط
، فإن الشاعر يبحث عن المعاني وهي لا تسعفه ، الأمر الذي جعلنا نقول إن مدحه
للخلفاء أقل في المستوى من مدحه للولاية ، إذا يكتفي فيه بنسبتهم إلى قريش وبأنهم من
مروان خاصة ويستطرد في وصف أصلهم وحسبهم الرفيع ، وبذلك لا تتسم قصائده أو
أبياته في الخلفاء بسمة فنية محببة إلى النفس :

لَكَ الْفَرْعُ مِنْ حِيَّيَ قَرِيْشٍ فَلَمْ تَضَعْ إِذَا عُدَّتِ الْمَسْعَاةَ نَجْمًا وَلَا بَدْرًا
تَقَرَّرَتْ بَيْتَ الْأَصْبَغِينَ فَلَمْ تَجِدْ بِنَاءَ يَفُوقُ الْأَصْبَغِينَ وَلَا عَمْرًا
تَخَيَّرَهُمْ مَرْوَانَ مِنْ بَيْتِ رِفْعَةَ وَكَانَ لَهُمْ كُفْوًا وَكَانَ لَهُمْ صِهْرًا
© وتظهر الناحية الدينية في مدائحه ظهوراً بيئاً ، فهو يجاري طبيعته المتدينة فتغلب
عليه السمات الدينية ، ويستمد أكثر تصويره وتعبيره من القصص القرآني والتعبير
القرآني ، فكثيراً ما يشبه المارقين بقوم هود وعاد وثمود ونوح وكذلك باليهود :

دَعَا أَهْلَ الْعِرَاقِ دُعَاءَ هُودٍ وَقَدْ ضَلُّوا ضَلَالَةً قَوْمِ هُودٍ
دَعَا الْحَجَّاجُ مِثْلَ دُعَاءِ نُوحٍ فَأَسْمَعَ ذَا الْمَعَارِجِ فَاسْتَجَابًا
لَأَقْوَا بُعُوثِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لَهُمْ كَالرِّيحِ إِذْ بُعِثَتْ نَحْسًا عَلَى عَادٍ
إلى غير ذلك من المعاني الدينية واستهامة للآيات والأحاديث النبوية الشريفة ...

© ثم بعد ذلك نجد التزلف والشكوى إلى الممدوح والعمل على استدرار عطفه بأكثر من
وسيلة ولعل الدافع إلى التفنن في شكواه وتأثيره على الممدوح هو معاناته الفقر ...

٢ - الغزل :

لم يتعلق جرير بإنسانة واحدة بعينها كما فعل العذريون ، بل هو ككل الرجال يعجب
بالمراة الجميلة ويهتف باسمها ، لذلك نجد الكثير من أسماء النساء في شعره الغزلي ،
وجرير يؤيد ما ذهبنا إليه بقوله :

أَخَالَدَ قَدْ عَلَّقْتُكَ بَعْدَ هِنْدٍ فَبَاتَتِي الْخَوَالِدُ وَالْهِنْدُ
فصاحبه كما يوحي الشطر الثاني من هذا البيت كثيرات كلهن خالدة أو كلهن هند ،
وأنهن جميعاً صور حية في الطبيعة محببة إلى نفسه ، لا يود أتخفي إحداها من الإطار
الذي يحيط بهن في مخيلته بل كلهن عزيز عليه.

ولكنه لم يرسم لكل واحدة صورة خاصة بها تتميز عن الأخرى بلامح وسمات تميزها تمييزاً تاماً أو إلى حد ما عن صاحبته ، بل كان وصفه عاماً يعبر عن شعوره نحوهن جميعاً ، مركزاً في واحدة يختار لها أي اسم من الأسماء الكثيرة التي تتعدد في ذاكرته ... وهو في حبه متوازن العاطفة لم تسيطر على كيانه واحدة بالتحديد بل إن حبه عادي كحب الرجل لزوجته التي تعاشره معظم وقته فلا يشعر بحبها إلا حينما يفارقها ...

وجرير لم يفرد للغزل قصيدة كاملة ، ولك يكن الغزل في شعره موضوعاً مستقلاً كما هو الحال عند عمر بن أبي ربيعة ، بل جاء في مقدمات قصائده ، الأمر الذي جعل البعض يقولون إن غزله ما هو إلا لون من ألوان الصنعة والتقليد خاصة أنهم لم يقفوا في مقدماته على عاطفة جارفة ... وقد بينا ذلك حينما قلنا إنه متوازن في نظرتة للمرأة لا يتعهر مثلما كان صاحبه يفعل - الفرزدق - بل يتعفف ...

وقد انقسمت المقدمة الغزلية عنده إلى : وقوف على الطلل وتصوير حقيقة شعوره في تلك اللحظة ثم تصوير محبوبته والتغلغل في حقيقة شعورها وتصويره ، وهو كباقي شعراء الغزل العذري قد يذكر بعض الطيور في غزله كالحمام .. يخاطبه ويبيته نجواه ، كذلك قد يذكر الوشاة والعدال ، وقد يتحدث عن الوعود والأمانى والأحلام واحتجاب المرأة عن ناظره وبخلها عليه ... أي أن معانيه هي المعاني التي استخدمها شعراء الغزل العذري كما سنعرفها فيما بعد .

٣ - الرثاء :

اختلفت نظرة جرير إلى لموت عن نظرة الفرزدق ، فالفرزدق نظر إلى الموت كأبي حادث عادي-كما سبق أن رأينا - إلا أن نفس جرير اهتزت كثيراً لمن ماتوا من الأعداء عليه في حياته ، فرثاهم وكأنما يرثي نفسه ن وأظهر حزنه على زوجه وعلى ابنه سواده ، بقطعتين من الرثاء تعدان من أروع ما قال ، ورثي أيضاً أخويه وبعض من اتصل به من الخلفاء والولاة ورجال عشيرته ...

وقد ترددت العاطفة بين القوة والضعف حسب درجة المرثى ومكانته من قلب جرير ، وفي شعر جري نجد الندب والعزاء والتأبين ، ومن مرثي جرير الرائعة نذكر هذه الأبيات التي قالها في البكاء على جبير بن عياض الكلبى :

فَتَى كَانِ أَحْيَا مِنْ فَتَاةٍ حَيِيَّةٍ وَأَشْجَعُ مَنْ لَيْثٍ بَخْفَانٍ مُقَدِّمًا

إِذَا اللَّحْمُ كَانَ الزَّادُ لَمْ يُلَفْ لَحْمُهُ جميعاً ولكنَّ شَاعَ فِي الْحَيِّ الْحُمَا
إِذَا الْأَمْرُ نَابَ الْحَيَّ لَمْ يَقْضِ دُونَهُ وإن طَرَقَ الْأَضْيَافُ لَيْلًا تَبَسَّما
فهو في هذه الأبيات يصف شمائل المرثي وضعا عذبا حلوا النبرات ، يستبكي
عليه العيون استبكاءً ويستتعي الأكباد ... ويكفي أن نقول إن لحظة الموت تهيج مشاعر
جرير وتثير أحاسيسه ، وهنا نذكر هذه الأبيات التي قالها عندما مرت به جنازة وهو
ينشد في الهجاء فقطع الهجاء وقال :

تُرَوِّعُنَا الْجَنَائِزُ مَقْبِلَاتٍ فَنَلْهُمُوا ، حِينَ تَذْهَبُ مُذْبِرَاتٍ
كَرْوَعَةٌ هُجْمَةٌ لُمُغَارِ سَبْعٍ فَلَمَّا غَابَ عَادَتْ رَائِعَاتٍ
ولجرير الكثير من القصائد الرائعة التي قالها في البكاء على بعض أزواجه
وأقاربه وخاصة الأبناء ونذكر في هذا المقام بمطلع القصيدة التي بكى بها زوجه خالدة
:

لَوْلَا الْحَيَاءُ لَهَاجَنِي اسْتِعْبَارُ وَلَزُرْتُ قَبْرَكَ ، وَالْحَبِيبُ يُزَارُ
ونذكر بقصيدته التي بكى بها ابنه والتي منها قوله :
قَالُوا نَصِيْبِكَ مِنْ أَجْرٍ فَقُلْتُ لَهُمْ مَنْ لِلْعَرِينِ إِذَا فَارَقَتْ أَشْبَالِي
فوكُنْتُ أَعْرِفُهُ مِنْبِي إِذَا غَلَقْتُ رُهْنُ الْجِيَادِ وَمَدَّ الْغَايَةَ الْغَالِي
بقي أن نقول إن جريراً طرق جميع الأغراض الشعرية المعروفة، ولكن اهتمامنا
بالهجاء يجعلنا نحيل عليها في الكتاب المذكور آنفاً :

٤ - الهجاء :

يقال إن أول ما نطق به جرير من الشعر هو شعر الهجاء ، وذلك حينما ترامى
إلى سمعيه هجاء "غسان السليطي" في بيته وقومه على أثر مشاحنة وخصومة قامت بين
فرعي يربوع : سليط وكليب . وكان هجاء "غسان" مما فتق لسانه بقوله :
لَا تَحْسَبْنِي عَنْ سَلِيْطٍ غَافِلًا إِنَّ تَعِشْ لَيْلًا بِسَلِيْطٍ نَازِلًا
لَا تَلْقَ أَقْرَانًا وَلَا صَوَاهِلًا وَلَا تَرَى لِلنَّازِلِينَ عَاجِلًا
أَبْلَغُ سَلِيْطِ اللُّؤْمِ خَبَلًا خَابِلًا أَبْلَغُ أَبَا قَيْسٍ وَأَبْلَغُ بَاسِلًا
إِنِّي لَمُهْدٍ لَهُمْ مَاحِلًا زَغْبَةَ وَالشَّحَاجَ وَالْقَنَابِلًا

وكانما شاء الله أن تتفتح عيناه على هذا التهاجي الذي اندفع في تياره حتى يذود عن قومه ، ويدفع عنهم الغوائل... وتتجدد المواقف وتكثر الملاحاة ويضطر جرير إلى أن ينزل شعراء عديدين منهم البعيث الجاشعي ، والذي قال فيه جرير :

مَهْلًا بَعِيثٌ فَإِنْ أَمَكِ فَرْتَتَا حَمْرَاءُ أَتَخَنَتِ الْعُلُوجُ رِدَامَا
ثم تمتد ملاحاته إلى الفرزدق ، بعد أن نزل الفرزدق مع النوار عليه وهما قافلان من الحج حوالي سنة ٦٤ للهجرة ، واعتذر إليه جرير عما بدر في شعره ، وأعجبت النوار بشعر جرير ونسيبه ، وقالت : قاتله الله ، ما أرق نسيبه ، وأنشد هجاءه ، فقال الفرزدق وقد دخلت الغيرة قلبه: "أترين هذا ؟ أما أني لن أموت حتى أبتلى بمهاجاته" .

وتمر الأيام لتعد كميناً آخر للأخطل ، وتتصب له الشباك فيقع فيها، وكان بمنجاة عن الدخول في ذلك التلاحي الذي اشتد أواره واندلعت نيرانه ، وتسامع الناس به ، ذلك أنه قال لابنه مالك : انحدر إلى العراق ، حتى تسمع منها ، وتأتيني بخبرها ، فلقيتها فاستمع ثم أتى إليه فقال : جرير يغرف من بحر ، والفرزدق ينحت من صخر ، فقال الأخطل : فجرير أشعرهما ، وقال :

إِنِّي قَضَيْتُ قَضَاءَ غَيْرِ ذِي جَنَفٍ لَمَّا سَمَعْتُ وَلَمَّا جَاءَنِي الْخَبْرَ
أَنَّ الْفَرَزْدَقَ قَدْ شَالَتْ نِعَامَتَهُ وَعَضَّهُ حَيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ ذَكَرَ

ثم قدم الأخطل (الكوفة على بشير بن مروان) والتقى ثلاثتهم عنده : جرير ، الفرزدق ، الأخطل ، وأخذ يغرى بين الشعراء على عادته ، فقال للأخطل : احكم بين الفرزدق وجرير ، فقال : أعفني أيها الأمير ، فقال : احكم بينهما ، فاستعفاه بجهد فأبى إلا أن يقول ، فقال : هذا حكم مشؤم ، قال : الفرزدق ينحت من صخر ، وجرير يغرف من بحر ، فلم يرض جرير بذلك، وكان هذا هو السبب في الهجاء بين جرير والأخطل ، فقال جرير :

يَا ذَا الْعِبَايَةِ إِنْ بَشَرًا قَدْ قَضَى أَلَا تَجُوزُ حُكُومَةَ النَّشَوَانِ
فَدَعُوا الْحُكُومَةَ لِمَسْتَمِّ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ الْحُكُومَةَ فِي بَنِي شَيْبَانَ
قَتَلُوا كَلِيْبَكُمْ بِقَحْحَةٍ جَارَهُمْ يَا خَزَرَ تَغْلِبُ لِسْتُمْ بِهَجِيَانِ

ومن الطبيعي أن يكون لهذه المعركة أشياح يؤازرون من أطراف الخصومة هذا أو ذاك، فكان راعي الإبل (عبيد بن حصين) أحد هؤلاء الذين ظاهروا الفرزدق على جرير بتحريض من رواية شعره ونديمه "عرادة النميري" وتلحظه في قوله :

يَا صَاحِبِي دَنَا الْأَصِيلُ فَسَيرَا غَلَبَ الْفِرْزْدُقُ فِي الْهَجَاءِ جَرِيرًا
وقال عرادة :

رَأَيْتُ الْجَحْشَ جَحَشَ بَنِي كَلَيْبٍ تَمِيمِ حَوْضَ دَجْلَةَ ثُمَّ هَابَا
وقد أراد عبيد بن حصين أن يعتذر لجرير في المسجد الجامع بالبصرة ، ولكن ابنه أثار الفتنة بينهما من جديد ، وكان على جرير ألا يسكت عن إهانة تتلوها أخرى ، مما حدا به أن يعيش هذه الأحداث بشاعريته المرهفة وإحساسه المشحوذ ، وعاطفته المكلومة ، فكان أن أنفق ليلته في معالجة الموقف بما يتدفق على خاطره من شعر هز الدنيا به في المربد حيث راح ينشد "دامغته" - اسم القصيدة - على مسامع الراعي والفرزدق بجانبه :

أَقْلِي اللَّوْمَ عَاذِلُ الْعِتَابَا وَقَوْلِي إِنْ أَصَابْتُ لَقَدْ أَصَابَا
وهي قصيدة طويلة عدد أبياتها ١١٤ بيتاً - نحيل عليها في الديوان ص ٨١٣ -
٨٢٥ تلك القصيدة التي لقبها العرب بلقب الفاضحة ، وكان جرير يسميها الدماغعة والمنصورة ، ومن هذه الأسماء تدرك إلى أي مدى كان حظ هذه القصيدة من المد والانتشار . وحسبها من ذلك أن صاروا يتناشدها ، بعد أن كانت ملهاة إلى أن صارت الألسنة تتناول "عبيداً" وابنه بالسب والمشامة .

ولم يقف الراعي من القصيدة موقف اللائذ بالصمت ، المستسلم لما انتابه من جرائمها من لعنات صبت عليه ، بل حاول أن ينقض الدامغة بما هجا به جريراً من قوله :

أَتَانِي أَنْ جَحَشَ بَنِي كَلَيْبٍ تَعْرَضُ حَوْلَ دَجْلَةَ ثُمَّ هَابَا
فَأَوْلَى أَنْ يَظَلَّ الْعَبْدُ يَطْفُو بَحِيثُ يَنْزَعُ الْمَاءَ السَّحَابَا
على أن هذا الهجاء لم يلبث أن تفرق بددا ، فلم يكتب له النجاح أو الذبوع ، على العكس من الدامغة التي سار بذكرها الركبان ، وكانت نغماً على الشفاه ، وكان على الفرزدق هو الآخر ، ولاسيما بعد أن لفحة قيظ الدامغة بأبياتها الكثر أن يدلي بدلوه ، وأن يتصدى لجرير بنقيضته التي منها قوله :

أَنَا ابْنُ الْعَاصِمِينَ بَنِي تَمِيمٍ إِذَا مَا أَعْظَمَ الْحَدَثَانِ نَابَا
وهنا يجدر القول بانه لا ينبغي لأحد أن يظن أن وراء صمود جرير أمام كل من قابلوه من شعراء عصره - وقيل إنهم أكثر من ثمانين - نفساً قوية تقتحم المصاعب وتحرص

على مواجهة الأهوال والشدائد ، لا ، فمن يدرس حياة جرير والملابس التي اكتفتها في نشأته وطفولته وشبابه يعجب أن يوزع جرير سلاحه في كل مكان ، أو أن يصل في كل ميدان، وقد يكون لذلك عوامل وأسبابه ، ومن بينها أن جريراً كان من الضعة بما أحسه من وخز واستشعره من هوان ، ولولا خشيته أن يراق ماء وجهه أو لا تبقى له بقية لكف لسانه عن الخوض في التهاجي ... ويدل على ذلك ما يأتي :

- ما وصف به من عفة ، على الرغم من حسن تشبيهه ، مما جعل الفرزدق يقول :
ما أحوجه مع عفته إلى صلابة شعري ، وما أحوجني مع عهري إلى رقة شعره .
- ما يروى عنه من نزوع إلى الدين ، وهذا "أبو عمرو بن العلاء" يقول: كنت قاعداً عند جرير وهو يملي :

وَدَّعْ أُمَامَةَ حَانَ مِنْكَ رَحِيلُ إِنَّ الْوَدَاعَ لِمَنْ تُحِبُّ قَلِيلُ

فمرت به جنازة ، فترك الإنشاد ، وقال شبيثي هذه الجنازة ، قلت : فلأي شيء تشتم الناس ؟ قال : يبدعونني ثم لا أعفو .

- شعوره بعقدة النقص لانحداره من قبيلته الدنيا "كليب" ومن ثم ترى في شعره ما يؤكد ذلك من أمثال فخره ببني رياح (أخي كليب) حين قال :

أَتُوْعِدُنِي وَرَاءَ بَنِي رِيَّاحٍ كَذَبْتُ لِنَقْصَرِنَّ يَدَاكَ دُونِي

إذ قال له بنو كليب عندئذ وقد أحسوا بهذه المنقصة : ما هجانا أحد قط بأشد مما هجوتنا به ، حين استوى لك أن تقول : وراء "بني كليب" فرغبت عن آبائك عن أعمامك .

- ما يروى عنه من قصص ، تؤيد استمساكه بالقيم ، وحرصه على الأخلاقيات الفاضلة ويذكر أبو عبيدة أن خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أراد اختبار الفرزدق وجرير عن طريق جارية بعث بها إلى كل منهما ، وكم كان الفرزدق فاجراً إذا أراد أن يثب على الجارية وهي عنده ، ولهذا نفاه عمر عن المدينة ، في حين أن جريراً أني أن تغسل الجارية رأسه ، وقال عمر لساعتها : عجبت لقوم يفضلون الفرزدق على جرير مع عفة بطن جرير وفرجه وفجور الفرزدق وخبثه .

بقي أن نسأل النقاد على شعر جرير ومكانته بين الفرزدق والأخطل !!

U أما ابن سلام فقد عده في الطبقة الأولى من الإسلاميين ، ونقل أخباراً تدل على رسوخ قدمه في مضمار الشعر ، منها ما قاله :

سألت "بشاراً العقيلي" عن الثلاثة - جرير والفرزدق والأخطل - فقال: لم يكن الأخطل مثلهما ولكن ربيعة تعصبت له ، وأفرطت فيه ، فقلت فجرير والفرزدق ، قال : كان جرير يحسن ضرورياً من الشعر لا يحسنها الفرزدق . وفضل "جريراً عليه" ، ومرة أخرى يذكر عنه قوله:

وسألت الأسيدي أبا بني سلامة عنهما - أي الفرزدق وجرير - فقال: بيوت الشعر أربعة : فخر ومديح ونسيب ، وهجاء ، وفي كلها غلب جرير ، في الفخر بقوله :
إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بُنُو تَمِيمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ غَضَاباً
وفي المدح قوله :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونِ رَاحٍ
وفي الهجاء قوله :

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نَمِيرٍ فَلَا كَعَبَ بَلَّغْتَ وَلَا كَلَاباً
وفي النسيب قوله :

إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرَ قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يَحْيَيْنَ قَتْلَانَا
وإلى هذا يذهب أهل البادية " .

والمواقع أن هذه نظرة نقدية مسرفة ، فإذا صح أن تلك الأبيات المأخوذة من قائد جرير تضرب بحظ من الجمال والروعة فلا ينبغي أن يكون بها جريراً سباقاً أو غلاباً ، ذلك لأن لكل شاعر ما يستجد من شعره ومع ذلك لا يمكن أن ترتقي هذه الأبيات المستجادة لكي تكون هي المعيار الذي على أساسه يتفاضل الشعراء ، ويتفاوتون منزلة أو مرتبة .

U ولعل فيما ذكره الدكتور شوقي ضيف - في الكتاب الذي بين أيديكم - ما يصيب شاكلة الصواب حين ذكر أن جريراً كان لا يباري في جميع الموضوعات التي تتصل بدقة الأحاسيس ورقة المشاعر ، وهو لذلك يسبق الأخطل والفرزدق في الرثاء والغزل وعواطف الزوجية والأبوة ، وهو كذلك يسبقها في الهجاء الخالص إذا كان يعرف كيف يريش سهامه ، ويسددها على نحور خصومه ، محلاً لها كل ما يمكن من سموم وليس لأحدهما موضوع يتقدم به عليه سوى ما كان من فخر الفرزدق ، إذ لم يكن لجرير مادة

يبني منها فخره ، إلا أن يرتفع من عشيرته إلى "يربوع" أو إلى تميم عامة ، حينئذ تند عنه أبيات رائعة كقوله :

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غَضَابًا

ولكنه على كل حال يقصر عن الفرزدق في هذا المجال "

U سئل الفرزدق عن جرير فقال : أعن ابن الخطفي تسألني ، ثم تنفس حتى قلت - أ السائل - انشقت حيازيمه ، ثم قال : قاتله الله ، فما أخشن ناحيته ، وأشرد قافيته ، والله لو تركوه لأبكى العجوز على شبابها والشابة على أحبابها ، ولكنهم هروه فوجدوه عند الهراش نابحاً وعند الجراء قارحاً ، وقد قال بيتاً لأن أكون قلته أحب إلي مما طلعت عليه الشمس :

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غَضَابًا

ويبدو أن هذا البيت أطار لب الخصوم الذين وقفوا إلى جوار الفرزدق ، فما لبث أن شمر بعضهم عن ساعد الجد ، وراح يتأهب للثأر من جرير في هذا البيت ، وممن هجا جريراً ونقض قصيدته التي منها البيت السابق ، العباس بن يزيد الكندي حيث قال مدافعاً عن الراعي :

أَلَا رَغَمْتُ أَنْوْفَ بَنِي تَمِيمٍ قُسَاةَ التَّمْرِ أَنْ كَانُوا غَضَابًا

لَقَدْ غَضِبْتَ عَلَى بَنِي تَمِيمٍ فَمَا نَأَتْ بَغْضَتَهَا ذِبَابًا

لو اطلع الغرب على تميم وما فيها من السوءات شأباً

U والأصبهاني يرى أن الذين قدموا الفرزدق على جرير فباعتبار ما يطلبونه من جزالة للشعر وفخامته وشدة أسره ، وأما من كان يميل إلى أشعار المطبوعين وإلى الكلام السهل الغزل فيقدم جريراً .

ومع هذا نجد من تعصب من النقاد على جرير ، وأسرف في الطعن عليه ، ذريعة إلى تقديم الفرزدق عليه ، وليس هذا من النقد في شيء ، فما كان النقد مغرضاً ، يقدم شاعراً على سواه من أجل ما يسوقه المرزباني عن البحثري الشاعر العباسي المعروف ، إذ أورد عنه قوله :

لا أريد أن أكلّم من يفضّل جريراً على الفرزدق ، ولا أعده من العلماء بالشعر ، فقيل له : وكيف وكلامك أشد انتساباً إلى كلام جرير منه إلى كلام الفرزدق ، كذا يقول من لا يعرف الشعر ، لعمرى أن طبعي بطبع جرير أشبه ، ولكن من أين لجرير معاني

الفرزدق وحسن اختراعه ؟ جرير يجيد النسيب ، ولا يتجاوز هجاء الفرزدق بأربعة أشياء : بالقيين وقتل الزبير ، وبأخته جعثن ، وإمراته النوار .

وعجيب أن يصدر هذا الكلام عن البحثري ، ولئن كان صادقاً - وله كل الحق في وصفه بإجادة النسيب - لقد هنا في أن جعل جريراً ضيق العطن في شعره ، ولاسيما هجاؤه الذي رمى الفرزدق والذي لاشك فيه أن الهجاء مما يستلزم أن يقف الشاعر أمام المعاني التي تضع من قيمة المهجو وتزري بقدرة ، وليس ثمة من المعاني ما يضائل من قيمة الهجو أكثر من المعاني التي ذكرها جرير ، وجعلها محاور للدخول في أهاجيه المقذعات ، ومع ذلك فلم يفت جريراً أن يهجو بدنياه التي إرتكس فيها ، وأشيعت عنه أو لا تراه ، يقول معرضاً بالفرزدق في حادث إخراجة عن المدينة ونفيه منها :

هُوَ الرَّجْسُ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ فَاحْذَرُوا مداخلَ رجسٍ بالخبيثاتِ عالم
لقد كَانَ إِخْرَاجُ الْفِرْزَدِقِ عَنْكُمْ ظهوراً لما بين المصلَى واقم

• أما سكينه بنت الحسين فتعقب على قول جرير :

طرفتكَ صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجي بسلام

بقولها : جعلتها صائدة القلوب حتى إذا أناخت ببابك جعلت دونها حجاباً ، ألا قلت :

طرفتُكَ صائدةُ القلوبِ فمرحباً نفسي فداؤك فادخلي بسلام

إلى غير ذلك مما تبعثر في كتب الأدب والنقد من آراء ونظرات في شعر جرير والفرزدق والتي في معظمها نقود جزئية ، نستغني عنها بإيراد بعض النماذج من هجاء جرير والفرزدق والأخطل وبعض من تعرض لجرير من الشعراء ، بغية التعرف على معاني الهاجي وأسلوبه ، ثم الوقوف على لباقة المهجو في الدفع عن نفسه ونقص تلك المعاني ، أو الانسحاب من الميدان إن عجز عن الرد ورأى في الهروب مغنماً .. (٧).

(٧) ملاحظة : لم نذكر شيئاً عن حياة الأخطل وذلك لأننا سنخصه بدراسة مستقلة .

صور من النقائض

â قال غسان بن سليط يهجو جريراً :

لَعَمْرِي لَنْ كَانَتْ بَجِيلَةَ زَانَهَا
إِذَا فَزِغَتْ يَوْمًا كَلِيبٌ وَسَوَمَتْ
رَأَيْتُ كَلْبِيًّا يَعْرِفُ اللَّوْمَ رِيحَهَا
وَمَا يَذْبَحُونَ الشَّاةَ إِلَّا بِمَيْسِرِ
رَمَيْتَ نَضَالًا عَنِ كَلِيبٍ فَقَصَّرْتَ
سَتَعْلَمُ مَا يُغْنِي مَعِيدٌ وَمُعْرِضٌ
جَرِيرٌ بَقْدَ أَخْزَى كَلْبِيًّا جَرِيرَهَا
تَقَاعَسَ فِي ظَهْرِ الْأَتَانِ مُغِيرَهَا
إِذَا اسْوَدَّ بَيْنَ الْأَمْلَحِينَ جُعُورَهَا
طَوِيلًا تَتَاجِيهَا صِغَارًا قُدُورَهَا^(٨)
مَرَامِيكَ حَتَّى عَادَ صِفْرًا جَفِيرَهَا^(٩)
إِذَا مَا سَلِيطٌ غَرَقَتْكَ بُحُورَهَا^(١٠)

â فأجابه جرير :

أَلَا بَكَرْتَ سَلَمَى فَجَدَّ بُكُورَهَا
وَشَقَّ الْعَصَا بَعْدَ اجْتِمَاعِ أَمِيرُهَا^(١١)

أَلَا بَيْتَ شِعْرِي عَنِ سَلِيطِ أَلَمْ تَجِدْ
لَقَدْ ضَمَّنَّا الْأَحْسَابَ صَاحِبَ سَوْءٍ
وَنُبِّئْتُ غَسَانَ بْنَ وَاهِصَةَ الْخُصَى
سَتَعْلَمُ مَا يُغْنِي حُكَيْمٌ وَمُنْقَعٌ
أَلَا سَاءَ مَا تَبْلَى سَلِيطُ إِذَا رَبَّتْ
بِأَسْتَاهِهَا تَرْمَى سَلِيطٌ وَتَنْقَى
وَلَمَا عَلَاكُمْ صَاكُ بَازٍ جَنَحْتُمْ
عَضَارِيطُ يَشُوونَ الْفَرَّاشِ بِالضُّحَى
فَمَا فِي سَلِيطِ فَارَسٍ ذُو حَفِيزَةٍ
سَلِيطٌ سِوَى غَسَانَ جَارًا يُجِيرَهَا
يُنَاجِي بِهَا نَفْسًا لَنِيْمًا ضَمِيرَهَا
يُلْجِجُ مِنِّي مُضْغَةً لَا يُحِيرَهَا^(١٢)
إِذَا الْحَرْبُ لَمْ يَرْجِعْ بِصُلْحٍ
سَلِيطٌ سِوَى غَسَانَ جَارًا يُجِيرَهَا^(١٣)
جَوَاشِيئُهَا وَازْدَادَ عَرَضًا ظُهُورَهَا^(١٤)
وَيَرْمِي نَضَالًا عَنِ كَلِيبِ جَرِيرَهَا
بِأَسْتَاهِ خِرْبَانَ تَصِيرُ صَقُورَهَا^(١٥)
إِذَا مَا السَّرَايَا حَثَّ رَكُضًا

(٨) أي يشتركون في الشاة كما يشترك الأيسار في الجذور - تتاجيها : أي تشاورها

(٩) النضال : أن ترمي وترمي - المرامي : السهام - الجفير : الجعبة - الصفر : الفارغ

(١٠) معيد : جد جرير أبو أمه - معرض : من أخوال جرير وكان يحمق

(١١) شق العصا : التفرق - أميرها : الذي توأمه وهو زوجها أو أبوها

(١٢) الوهص : الشدخ أي شدخ خصى الغنم تمهيداً لشويها وهو فعل يقوم به الخدم - يلجج : يديرها في فمه - يجيرها :

يستصيغها

(١٣) حكيم ومفقع : أعوان غسان على جرير - السفير : المصلح بين القوم

(١٤) يريد أنها انتفخت رئاتها من الجبن فملأت صدورها وظهورها

(١٥) الجنوح : الميل . الخربان : ذكور الخبأرى - - قصر : تصيح . والمعنى : ليس عندكم دفع إلا بأستاهكم كما أن الحبارى ليس

عندها دفع إلا أن تسلح على البازي

مُغِيرَهَا (١٦)
وَمَعْقَلَهَا يَوْمَ الْهِيَاجِ جُعُورَهَا (١٧)

â فناصر أبو الوراق عقبة بن مليص المقلدي غسان على جرير ، بقوله :

إِنَّ الَّذِي يَسْعَى بَحْرًا بِلَادِنَا كَمَبْتَحَتْ نَارًا بَكَفٍ يُثِيرُهَا
وَمَا حَارِبْتَنَا مِنْ مَعَدِّ قَبِيلَةٍ فَتَنْقَلِعُ إِلَّا وَهِيَ تَدْمِي نَحْرَهَا
وَالْأَرْمِيْنَاهَا بِصَدْرِ وَكَكَلٍ مِنْ الشَّرِّ حَتَّى مَا يَهْرُ عُقُورُهَا
أَبَا الْخَطْفَى وَابْنِي مَعِيدُوْ مُعْرَضٍ تُسَدِّيْ أُمُورًا جَمَّةً تُتِيرُهَا (١٨)

â وَقَالَ غَسَانُ أَيْضًا :

مَنْ شَاءَ بَايَعْتَهُ وَخَلَعْتَهُ إِذَا جَنَى الْحَرْبَ بَعْدَ السَّلْمِ جَانِيَهَا
لَا تَسْأَلُونَ كَلِيْبًا فَيُخْبِرُكُمْ أَيُّ الرَّمَاكِ إِذَا هُزَّتْ عَوَالِيَهَا
أَمَّا كَلِيْبٌ فَإِنَّ اللَّؤْمَ حَالَفَهَا مَا سَالَ فِي حَفَلَةِ الزَّبَاءِ وَادِيَهَا (١٩)

â فَأَجَابَ جَرِيرٌ :

أَسْأَلُ سَلِيْبًا إِذَا مَا الْحَرْبُ أَفْرَعَهَا مَا شَأْنُ خَيْلِكُمْ قُعَسًا هَوَادِيَهَا (٢٠)
لَا يَرْفَعُونَ إِلَيَّ دَاعٍ أَعْنَتْهَا وَفِي جَوَاشِينَهَا دَاءٌ يُجَافِيَهَا (٢١)
وَمَا السَّلِيْبِيُّ إِلَّا سَوْءَةٌ خُلِقَتْ فِي الْأَرْضِ لَيْسَ لَهَا سِتْرٌ يُوَارِيَهَا

â قَالَ الرَّاعِي :

يَا صَاحِبِي دَنَا الْأَصِيْلُ فَسِيْرَا غَلَبَ الْفَرَزْدَقُ فِي الْهَجَاءِ جَرِيْرَا

â فَأَجَابَ جَرِيرٌ :

(١٦) العصاريط : الأتباع - الفرث : أحفاف الإبل . أي أنهم لا يأكلون إلا شرا ما في الجزور وبأنهم لا يركبون مع الناس إذا ركبوا الغارة أو فرع .

(١٧) ذو حفيظة : ذو غضب - معقلها : ملجأ قومها - أي إذا تهايج الناس أحد ثواهم فرعا وجبنا فلم يستعن بهم أحد ، فذلك منجاهم يوم الهياج ونجواهم به ... والنص طويل نحيل عليه في الديوان ص ٨٩٠

(١٨) وهو هنا يشير إلى جد جرير ولعله يعرض بما شهر به ، وكذلك يشير إلى أخواله وما شهروا به من حمق .

(١٩) الزباء : ماء لبني سليط - حفلته : كثرته - ويعني كثرة السيل واجتماعه

(٢٠) القعس : دخول الظهر وخروج الصدر - هوديتها : أعناقها

(٢١) أي في صدور بني سليط انتفاخ من الجبن والفرع ، لأنهم لا يثبتون على متون خيلهم

----- (٢٢) -----

إذا غضب عليك بنو تميم
فغض الطرف إنك من نمير
أتجعل دمنة خبثت وقلت
إلى فرعين قد كثرا وطابا
حسبت الناس كلهم غضابا
فلا كعباً بلغت ولا كلابا

â فقال الراعي وهو يريد نقضها :

أتاني أن جحسن بني كليب
فأولى أن يظل العبد يطفو
أتاك البحر يضرب جانبيه
أغر ترى لجريته خابا
تعرض حول دجلة ثم هابا
بحيث ينازع الماء السحابا

فكف الراعي ورأي أن لا يجيبه ، فأجاب عنه الفرزدق على روى قوله :

أنا ابن العاصمين بني تميم
إذا ما أعظم الحدثان نابا

فغلبها جرير بنصه السابق ، وقيل إن الراعي سمع جرير ينشد قوله :

وعاوى عوى من غير شيء رميته
خروج بأفواه الرواه كأنها
بقافية أنفاذها تقطر الدما
قرى هندواي إذا هز صمما

فقال الراعي : ما لجرير لعنه الله ، ثم قال علام يلومني الناس أن غلبنى هذا (٢٣) .

â فقال جرير يهجو الراعي بعد أن لطمته بغلته :

أقلَى اللوم عاذلَ والعتابا
وقولي إن أصبتُ لقدُ أصابا

وهي القصيدة التي سميت بالدماغه والمنصورة ... وهي قصيدة مفرطة الطول نذكر
منها :

ووجد قد طويت يكاد منه
سألناها الشفاء وما شفقتنا
أبي لي ما مضى في تميم
ستعلم من يصير أبوه قيناً
ضمير القلب يلتهب التهابا
ومنتتا المواعدَ والخلابا (٢٤)
وفي فرعى خزيمة أن أعابا
ومن عرفت قصائده اجتلابا
كيربوع إذا رفعوا العقابا (٢٥)

(٢٢) تركنا ثلاث أبيات لقبح معناها .

(٢٣) قيل إن الراعي أراد أن يعتذر لجرير أمام الناس ولكن حدثت وقية جعلت الفرزدق ينشد قصيدته الدماغه .

(٢٤) الخلاب : الكذب في مواعيدهن ، وقول الباطل

(٢٥) يربوع : جد من أجداد جرير . العقاب : الرابية

وما وجد الملوك أعزَّ منا
ألا قَبِحَ الإلهُ بني عقال
لقد خزي الفرزدقُ في معدَّ
فما هَيْبَتُ الفرزدقِ قد علمتُم
أعدَّ اللهُ للشعراءِ مِنِّي
قرنتُ العبدَ عبدَ بنى نَمِيرُ
أنا البازي المدلُّ على نَمِيرُ
وأسرع من فوارسنا استلابا
وزادهم بعدهم ارتيابا^(٢٦)
فأمسى جهد نصرته أعتيابا
وما حق ابن بروع لأن يهابا^(٢٧)
صواعق يُخضِعُون لها الرقابا
مع القينين إذ غلبا وخابا
أتحث من السماء لها انصابا^(٢٨)

â قال الفرزدق يهجو جريرا :

إن الذي سمك السماء بنى لنا
بيتاً بناه لنا المليكُ وما بنى
بيتاً زرارة مُحْتَبٌ بِفَنَائِهِ
يلجون بيتَ مُجاشعٍ وإذا احتَبُوا
ضربت عليك العنكبوتُ بنسجها
أحلامنا تزنُ الجبالَ رزانةً
فادفع بكفك إن أردت بناعنا
وأنا ابن حنظلة الأغرِّ وإنني
فرعان قد بلغ السماء ذراهما
بيتاً دعائمُه أعزُّ وأطولُ^(٢٩)
حكَمُ السماءِ فإنه لا يُنقلُ^(٣٠)
ومجاشعٌ وأبو الفوارس نَهْشَلُ^(٣١)
برزوا كأنهم الجبالُ المثلُ^(٣٢)
وقضى عليك به الكتابُ المنزَلُ
وتخالننا جنًّا إذا ما نَجَهَلُ^(٣٣)
تَهْلانُ ذا الهضبات هل يتحلَّلُ؟^(٣٤)
في آل ضبَّةَ للمُعِمِّ المَخُولُ^(٣٥)
وإليهما من كل خوف يُعقلُ^(٣٦)

(٢٦) بنو عقال : قوم الفرزدق

(٢٧) ابن بروع : الراعي النميري ، وبروع اسم أمه ، وجرير من يهجو في هذه القصيدة كما نلاحظ أكثر من شاعر - الفرزدق .
الراعي . الأخطل - وقد هزم الثلاثة في هذا النص

(٢٨) البازي : طير من جوارح الطيور يستخدم في صيد الطيور . المدل : الذي له السلطة على القوم

â هذا ما اخترناه من النص وقد أهملنا أبياتا بين هذه الأبيات لقيح في معناها ...

(٢٩) سمك السماء : رفعها

(٣٠) المليك : الله سبحانه وتعالى

(٣١) زرارة ومجاشع ونهشل أولاد دارم بن مالك جد عشيرة الفرزدق - محتب بفنائها : جلسته تدل على شرفه وعظمته وكبريائه .
وقد اشتمل بثوبة بطريقة خاصة .

(٣٢) يلجون : يدخلون . احتبوا : اشتملوا بالثوب

(٣٣) الحلم : العقل والأناة . الرزانة : الوقار

(٣٤) تهلان : جبل عظيم بنجد . يتحلل : يتحرك أو يزول

(٣٥) حنظلة : هو ابن مالك بن يزيد من رهط الشاعر وأمه من ضبة - آل ضبة : أحوال الفرزدق

(٣٦) يعقل : يلجأ

يابن المراغة أين خالك؟ إنني
خالِي الذي غصب الملوك نفوسهم
وشغلت عن حسب الكرام وما بنوا
خالِي حُبَيْشُ ذُو الْفَعَالِ الْأَفْضَلُ^(٣٧)
وإليه كان جباء جفنه ينعَلُ
إن اللئيمَ عَن المكارمِ يُشْغَلُ

â فأجابه جريراً ناقضاً :

أخزى الذي سمك السماء مجاشعاً
بيتاً يحمم قينكم بفنائيه
ولقد بنيت أخس بيت يبتتني
أنى بنولي في المكارم أولى
أحلامنا تزن الجبال رزانة
فارجع إلى حمى قريش إنهم
وقضت لنا معز عليك بفضالنا
إن الذي سمك السماء وبنى لنا
أبلغ بنى وقبان أن حلومهم
ألهى أياك عن المكارم والعلأ
وبنى بناءك في الحضيض
الأسفل^(٣٨)
ودنا مقاعده خبيث المدخل^(٣٩)
فهدمت بيتكم بمنأى يذبل
ونفخت كيك في الزمان الأول^(٤٠)
ويفوق جاهلنا فعال الجهل^(٤١)
أهل النبوة والكتاب المنزل
وقضت ربيعة بالقضاء الفیصل
عزاً علاك فما له من منقل
خفت فلا يزنون حبة خردل^(٤٢)
لي الكتائف وارتفاع المرجل^(٤٣)

â أما الأخطل فنكتفي بإيراد ما قاله في تفضيل الفرزدق على جريير^(٤٤) ، قال:

مابال قوم لا تغب أذاتهم
هم هيجوا حربى وما لهم بها
حرب امرئ ما إن تربت سلاحه
قُعسِ الظهور من الحبين بطن^(٤٥)
لو واجهتهم باللقاء يدان
بدا ولا يغتر بالحدثان^(٤٦)

(٣٧) ابن المراغة : يقصد جريراً ، المراغة : مكان تنمرغ فيه الدابة فكأنه ولد في هذا المكان - حبيش : ابن دارم من ضبة

(٣٨) مجاشع : قوم الفرزدق . الحضيض : أسفل الجبل

(٣٩) يحمم : يدخن - القين : الحداد

(٤٠) الكير : منفاخ الحداد

(٤١) الرزانة : الثبات والوقار - الجاهل : السفیه الخفيف العقل

(٤٢) بنى وقبان : يقصد بنى مجاشع وهو لعن لهم ووصف بالحمق والجنون - خفت : طاشت

(٤٣) ألهى : شغل . العلا : المجد والرفعة . لي الكتائف : قتل الجبال . المرجل : القدر

(٤٤) ما في شوقي ضيف - الكتاب - يكفي كما سلف ا، قلنا

(٤٥) ما بالهم : ما حصل لهم . قعس الظهور : ضد الأحدث . الحبين : وجع في البطن . بطن : عظام البطن

(٤٦) تربت : تبلي . الحدثان : النوائب . لا يغتر بالحدثان : لا تأخذ النوائب على غرة لاستعداده

قَبَحَ الإِلهُ بنِي كَلِيبِ إِنَّهُمْ
وَإِذَا تَتَوَدَّبَ لِلْمَكَارِمِ وَالْعَلَا
أَجْرِيرِ إِنَّكَ وَالَّذِي تَسْمُو لَهُ
حَمَلَتْ لِرَبَّتِهَا فَلَمَّا عُولِيَّتْ
أَتَعَدَّ مَأْثِرَةً لَغَيْرِكَ فَخَرَهَا
تَاجُ الْمُلُوكِ وَفَخَرَهُمْ فِي دَارِمِ
مَتَأَلَّفُ فِي بَرْدَةِ حَبَقِيَّةِ
يَغْذُو بَنِيهِ بِثَلَاثَةِ مَذْمُومَةٍ
سَبَقُوا أَبَاكَ بِكُلِّ فَجْمَعٍ تَلْعَةٍ
أَخْسَأُ كَلِيبُ ، إِلَيْكَ ، إِنْ مُجَاشِعًا
قَوْمٌ إِذَا خَطَرْتُ عَلَيْكَ قُرُومَهُمْ

لا يحفظون محارمَ الجيران^(٤٧)
لم يندبوا لترادف الأعدان^(٤٨)
كأسيقةٍ فحرت بِجِدْجِ حِصَانِ^(٤٩)
نسلت تُعارضها مع الأضعان^(٥٠)
وسنأؤها في سالف الأزمانِ
أيامَ يَرَبُوعٌ مع الرُعَيانِ^(٥١)
بفناء بيتِ مَذَلَّةٍ وهوانِ^(٥٢)
ويكون أكبرَ هَمَّه رِبْقَانِ^(٥٣)
بالمجدِ عندَ مواقف الركبَانِ^(٥٤)
وأبا الفوارسِ نهشلاً أخوانِ^(٥٥)
طرحوك بين كلاكلِ وجرانِ^(٥٦)

(٤٧) بنوكليب : رهط جرير . محارم : جمع محرمة أي ما لا يحل انتهاكه

(٤٨) تتودب : ندب الناس ودعوا . الترادف : التعاون . أي لا يصلحون للمكارم والمعالي .

(٤٩) تسمو له : تتعلق به من مفاخر ليست لك . الأسيقة : الأمة . الحدج : مركب النساء على البعير . الحصان : الحرة وهي ضد الأمة . أي إن فخرك بما ليس لك كفخر الأمة بحدج سيدتها .

(٥٠) أي حملت لسيدتها . عوليت : علت الحدج . نسلت : أسرعت . تعارضها : أي تعدو لها

(٥١) دارم : رهط الفرزدق : دبر يد الخطل تفضيله على جرير بهذا الشعر . الرعيان جمع راع

(٥٢) التلة : الصوف أو جماعة من الغنم . الربقان : مثني ربق : جبل يشد في عنق البهيم

(٥٣) حبيقة : نسبة إلى صانع أو إلى نوع من الغنم

(٥٤) التلعة : الأرض المرتفعة ، عند مواقف الركبان : أي عند المفاخرة والتحاكم

(٥٥) أخسأ : ابتعد محقراً . إليك : تنح وابتعد . مجاشع : قبيلة الفرزدق . نهشل : قبيلة من تميم كمجاشع

(٥٦) خطر الحمل بذنبه : رفعه مرة بعد أخرى . القروم : الفحول والأمجد جمع قرم . الكلاكل : جمع كلكل وهو الصدر . الجران

: صفحة العنق . أي إن رجالهم يعلون عليك مفاخرة